شعراء الشباب

ووجوب عنايتهم بثقافتهم الخاصة

للأستاذ دريني خشبة

ليس الغرض من هذه الكلمة تعيير شعراء الشباب بفقر ثقافتهم ، ولكن الغرض منها هو التعاون العام بين من تعنيهم نهضة الشعر العربي ، وبين أولئك الشعراء الذين تعتمد عليهم نهضتنا الأدبية كل الاعتماد في الأخذ بيد الشعر ، وتجديده ، والاتجاه به إلى الوجهات التي ظل الشعر العربي محروماً منها إلى اليوم

ونحن حينما ندعو إلى وجوب إحداث ثورة ـ أو نهضة ـ في الشعر العربي ، نؤمن بأن الثورة ـ أو النهضة ـ ليست عبثاً يستطيع أن ينهض به أولئك المتأدبون الظرفاء الذين عرفوا بعض موازين الشعر . وقواعد العروض ، فكان حسبهم من الشعر كله هذه المعرفة اليائسة التي انقلبت في رؤوسهم غروراً ذميماً ، وخيلاء لا تعرف التواضع ، وأحلاماً تشبه أحلام الصائمين في هذا الزمان بالأطايب والأشربات !

لا يستطيع جاهل أن ينفع نفسه ولا أن ينفع أمته ... ولا تستطيع جماعة من الجهلاء أن تضطلع بعمل يحتاج القيام به إلى علم وبصيرة وطول تجربة ... وقد طالبنا شعراء الشباب بإحداث نهضة في الشعر العربي تشمله كله شكلاً وموضوعاً ... فما راعنا إلا أن يظن أولئك المتأدبون الظرفاء أننا ندعوهم لهذا العمل ، ونعتمد عليهم في القيام به ... فأمطرونا بمئات كثيرة من هذياناتهم التي دعوها شعراً ... ومع إعجابنا الشديد بعدد كبير مما وصلنا من المنظومات الشائقة من مصر ومن جميع الأقطار العربية إلا أننا لم نستطع منافقة أصحاب الكثرة الغالبة من المنظومات الأخرى التي تضطرنا إلى مصارحة إخواننا الظرفاء هؤلاء بوجوب النصح لهم بالانصراف عن قرض الشعر ، ومعاطاة صناعتهم البائرة تلك ، التي سوف تجر عليهم عقابيل من الحسرات لا قبل لهم بها ... وليس في تعبيرنا بذلك الأسلوب قسوة على أحد ... فالمسئلة جد لا لعب ... إنا مفتقرون إلى شعر جديد يشحذ من همة الأمم العربية ، وترى فيه تلك الأمم آمالها ومطامحها ، وترى فيه أدباً جديداً حياً سائغاً لا تقلد به العباسيين ، ولا تمشي به في آثار الأمويين أو الأندلسيين ... نريد شعراً تتجلى فيه شخصيتنا قوية مستقلة لها طريقتها الخاصة من الأداء والتفكير ... لا شعراً مقلداً رثاً تكرثه روح الماضي ، وتجثم على صدره قيود الغابرين ... ونحن حينما هتفنا بشعراء الشباب ليتغنوا آمالنا الجديدة ، ولينشدوا لنا أنشودة العالم العربي الحديث ، لم نكن نزعم أن هؤلاء الشعراء مبرأون من العيوب ، ولكنا كنا نزعم أنهم أقدر على التجديد من الشعراء الشيوخ الأجلاء ، الذين نحبهم ونحترمهم . وإن خامرنا الشك في قدرتهم على التجديد ، لأنهم عاشوا معظم حياتهم في هذا القديم الذي لم يعرفوا غيره

غير أن الشعراء الشباب ـ أو أغلبية الشعراء الشباب ـ المشهورين وغير المشهورين فقراء في ثقافتهم إلى درجة محزنة ... والشاعر الفقير في ثقافته لا يستطيع أن ينهض بثورة في الشعر وإن حاولها ، وأرق في سبيلها عينيه ، لأنه مفتقر إلى الأدوات الأولى التي تمكنه من إتقان عمله ، وتمهد له سبيله إلى قلوب قرائه ...

ولسنا ندري إن كان كلامنا هذا سوف يغضب أحداً من هؤلاء الشعراء ما دمنا صادقين فيه ، صادقين في إزجاء النصح لكل شاعر يود أن تكون له منزلة سامية في مستقبل هذا الشعر الذي ندعو إلى تجديده وإصلاحه

وشعر الشباب في الأقطار العربية فئتان . فئة تجهل اللغات الأجنبية ، وفئة تعرف واحدة أو أكثر من واحدة من تلك اللغات ... فالفئة التي تجهل اللغات الأجنبية لم تطلع على نماذج الشعر الأجنبي في لغاته الأصلية . وأكبر الظن أنها لا تدري ما الملحمة ولا الدرامة المنظومة ولا ما الشعر المرسل ... وليس في ذلك ضير قط على شعراء هذه الفئة ، وإن كنا نؤثر لهم تعلم إحدى هذه اللغات وإتقانها إلى الدرجة التي تساعدهم على مطالعة أشعارها لما للمحاكاة والإيحاء من أثر بالغ في تجديد شعرنا الذي نصبو إليه ، فإن لم يتيسر لهم تعلم إحدى اللغات الأجنبية ، فلا

أقل من استيعاب كل ما يترجم من ملاحم تلك اللغات ومن دراماتها ، تحتاج العبقرية العربية بتذكر أن تلك الملاحم وهذه الدرامات كانت شعراً فى لغاتها الأصلية ، فليس ما يمنع أن ننظم مثلها أو أرقى منها ما يدانيها بالشعر العربي ... وإن لم يرقنا الشعر المرسل فى دعوتنا إليه ، ولا نزال نؤثره على غيره للملاحم وللدرامة المنصوصة ، فسنختار لنظم الملحمة أو الدرامة الطريقة العروضية التى نراه . إذ لا ينبغى أن يحول الشكل دون الغرض

أما الفئة التى تعرف اللغات الأجنبية وتتقنها إلى الدرجة التى تقرأ بها الشعر الأجنبى قراءة مفهومة سائغة ، فهى الفئة التى أخرجت مصر والشرق العربى أحسن شعرائها ، ولسنا نريد أن نثير فتنة بين الفئتين بهذا التفضيل الذى لا يمارى فى حقيقته أحد ، بل نحن - على العكس من ذلك - نريد أن نفهم أغلبية الفئتين بأنها أغلبية فقيرة الثقافة ، قليلة الاطلاع ، لا تحفل بأن تجارى تيارات الفكر العالمى ، ولا بموا كبتها تلك المواكبة التى تنعكس فى أشعارنا - إما موافقة وإما معارضة وإما ابتداعاً

إن المكتبة العربية القديمة لتحفل بطائفة قيمة من كتب النقد التى تنجلى فيها عبقريات أسلافنا من النقاد العرب ، والتى تطلعنا على موازين أدبية لا يقل كثير منها عما يروج اليوم من أساليب النقد الحديث فى أوربا . . . فهل اطلع شعراؤنا الشباب — أو أغلبية شعرائنا الشباب — على هذه الكتب ، وهل حاولوا الانتفاع بما أورده أصحابها فيها من كرائم اللفتات الأدبية التى تكون بمثابة المفاتيح الفجة ، والأذواق الشاردة ، كما تكون الفار للذهب ؟

هل قرأ شعراؤنا الشباب — أو أغلبية شعرائنا الشباب — كتاب العمدة لابن رشيق ، أو كتاب نقد الشعر ونقد النثر لقدامة ؟ إنهم لا شك يسمعون عن كتاب الصناعتين للعسكرى ، فهل فكروا فى قراءته والانتفاع بما فيه ، أو بما فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، أو كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ؟! ثم كتب البيان والتبيين والكامل ومعاهد التنصيص وغيرها وغيرها من ذخائرنا التى لا نحضرنا الآن أسماؤها والتى لا داعى لحشد أسمائها ...

إن هذه الكتب وغيرها ثروة ثمينة فى المكتبة العربية القديمة لا غنى عنها لشاعر يحترم نفسه ... شاعر يحس من نفسه بنواحى الضعف فلا يمنعه استعلاء أو غرور عن معالجتها بالإكباب على كتب القدامى من أبطال النقد الأدبى العربى ، ثم بما تصل إليه يده من كتب النقد الحديث المؤلفة أو المترجمة ، وهى كتب والحمد لله قد أنفق فيها مؤلفوها ومترجموها جهوداً محمودة مشكورة ، يجب أن تقابل من طائفة الأدباء عامة ، والشعراء بوجه خاص بحسن القراءة والمذاكرة ، حتى يكتب الكتاب ، وينظم الشعراء على هدى مما تلفتهم إليه تلك الكتب من عيوب الكتابة ومآخذ النظم ، وحتى يستطيعوا أن يفهموا روح القوة — أو روح النهضة — التى نطلب إليهم الاضطلاع بأعبائها فى الأدب العربى عامة ، وفى الشعر العربى خاصة

ولدينا من كتب النقد الحديث طائفة صالحة جداً من إنتاج أشبال الجامعة ورجالها الصناديد ، ومن إنتاج كرام كتابنا الذين مهدوا لنا طريق نهضتنا ، وحملوا المشاعل الأولى بين أيدى أدبنا الغض المفتقر إلى الإصلاح والتجديد ... فهل قرأ شعراؤنا الشباب ، أو معظم شعرائنا الشباب ، شيئاً من تلك الكتب ؟ وهل انتفعوا بها فى تنظيم إنتاجهم الأدبى ؟

إن الشاعر الذى يكتفى بمواهبه فى توجيه منظوماته هو شاعر تعس ، لا يرجى منه خير كثير ... والشاعر الذى يبخل على نفسه بشراء عشرة كتب فى النقد القديم والحديث هو شاعر فقير فى تفكيره ، مريض فى إنتاجه ، غاط فى نومه المتلئ بأحلام النوكى والضعفاء ... تلك الأحلام المريضة التى لن يصيب منها الأدب العربى ، ولن يصيب منها الشعر العربى إلا ما أصاب من الزخارف الباطلة التى سماها أصحابها شعراً ، وما هى من الشعر فى شىء ، لأنها عبث يغثى النفوس ، ويكرب الأخيلة ، ويزهد الإنسان فى إنشاد الشعر

وليس تقصير شعرائنا الشباب ، أو معظم شعرائنا الشباب فى مطالعة كتب النقد هو كل ما نأخذه عليهم ، بل يحزننا أن نقرر أن أكثرهم لا يقرأون من الشعر العربى إلا قدراً ضئيلاً لا يقوّم ألسنة ، ولا يكسب ثروة ، ولا يربى ملكة ، ولا يطبع ذوقاً ، ولا يمد القريحة بما تفتقر إليه ساعة النظم من شتى التعابير وفنون الأساليب ... يبدو ذلك كله فى استعباد طائفة بعينها